بطلة جديدة

قصة بقلم عايدة مطرجي ادريس

لم تهدأ منذ ان وصلنا . انها تكاد تنفجر حيوية وخفة . تثب تارة الى حضن عمها فتقرصه في ذراعه او تشده من انفه ، وتهرع تارة الى ابن خالتها فتمد له لسانها ساخرة ، فاذا حاول ان يهاجمها هربت منه، وراحت تقفز كالفراشة وتدور حول الطاولة فلا يدركها ابدا .

ـ اتعتقد انها تشعر باهتمام الناس بها الى هذا الحد ؟

فاجابني سالم :

ـ لا اظن انها بلغت هذا المبلغ من الوعي .

فقلت له :

ـ ولكن الشعور لا يتطلب الوعي بالضرورة ... اليست هي بالاحرى غريزة الانثى ؟ فابتسم وقال :

ـ لا شك في انك ادرى مني بذلك !

ثم عدنا نراقب .. رائدة من جديد . وكان ابن خالتها باسم قد احضر بندقية صغيرة ، كأنما اراد ان ينتقم بذلك منها .. والواقع انها راحت تتطلع اليه شبه مشدوهة وهو يدخل في فوهة بارودته فلينة ثم يشد على الزناد فينبعث صوت انفجار يعلن الصبي عن اعتزازه به ببسمة تجيلها على شفتيه ، ورأينا الصغيرة تخفض نظرها لحظة ثم ترفعه وقد حملته معنى واضحا من الابتهال . واذا بها تقول بصوت منخفض :

ـ اعرني اياها يا باسم . ساعيدها لك بعد قليل ...

ان الصبي لم يكن ينتظر اكثر من ذلك به ينفخ صدره ويقدمها اليها بحركة متكبرة وهو يقول رافعا سبابته الصغيرة :

ـ دقيقة واحدة فقط . هل تسمعين ؟

غير ان رائدة لا تجد ضرورة للجواب بعد ان اصبحت البارودة بيدها ... وقال لي سالم :

ـ مسكين باسم ! .. لقد فقد ملكية البارودة . وسجلتها رائدة باسمها ! ...

ورويدا رويدا بدأت نظرة التعالي والكبرياء في عيني باسم تتحول الى نظرة احتجاج وشكوى . ثم ارتخت زاويتا فمه وقال بصوت ينذر بالبكاء:

ـ الم اقل لك دقيقة واحدة فقط ؟

فاصطنعت رائدة الصمم . وقال لي سالم :

ـ كان يجب ان نشتري لها ساعة لتضبط الدقيقة الممنوحة لها !

ففحكت واعداني سالم بروحه المرحة فعلقت قائلة :

ـ ما يدريك في مثل تلك الحالة انها لن تزعم لباسم بان ساعتها معطلة؟

وفجأة رأينا الصبي يندفع اليها وهو يحاول اختطاف البارودة منها . ولكنها تمكنت من الفرار . غير ان باسم ادركها هذه المرة فطرحها على الارض ، فسارعت تخبئها تحت صدرها . وحين حاول ان يفك اصابعها انحنت على يده تعضه . وكان طبيعيا ان يبكي . والواقع ان هذاالتصرف هو الذي افقدها المعركة ، اذا انها لم تطق ان ترى الصبي وهو يبكي بتلك الحدة والحماسة ، فمدت له البارودة . وما ان صمت حتى انفجرت هي باكية .. وما لبثت ان التفتت الى ابيها فاندفعت نحوه والقت رأسها بين ركبتيه .

وادركت ان سالم سيفقد بدوره ثمن بارودة جديدة لن يقوى بحال من الاحوال على الامتناع عن شرائها . لقد كان بكاء رائده معقولا ، انه لم يكن يستطيع ان يصمد حين يكون كذلك . اما اذا بكت ابنتنا لغير سبب معقول ، فانه كان يدعها تبكي ما طاب لها البكاء اذ كان على يقين من انها ستصمت اخر الامر ، ولو كان صمتها ناتجا عن استغراقها في النوم .

ونظر الي سالم يقول :

ـ لا بد الان من الخروج

ونهض فرفع رائده بين ذراعيه وادنى خدها من فمه يلامسه بحنان وهو يقول .. اسكتي يا حبيبتي ، سنشتري لك بارودة اجمل .

فتطلعت اليه وقد علق الدمع في معجرها فزاد عينيها الرائعتين بريقا وشفافية وسالته متلهفة :

ـ صحيح يا بابا ؟ بارودة حمراء ، تعمل « بوم » ؟

فهز برأسه وهو يضمها اليه ، ثم القى السلام على اقربائنا ، وافسح لي المجال لاخرج قبله .

وقبعت رائدة في سيارتنا الصغيرة تطوف بعينيها خيالات واحلام .

وكان يدهشني غالبا ان ارى في نظراتها ادراكا لا احسب ان كثيرا من الاطفال يملكونه . وقد لاحظنا مرات عديدة انها كانت تتمرد حين نحاول ان نعاملها معاملة الاطفال . وكان سالم سريع التأثر لذلك . اذ كان يسعى غالبا ان ينهج معها وكانها صبية وما زلت اذكر انها قالت له مرة وهو يداعب اختها الصغيرة :

ـ « ان نانا صغيرة . وانا احبها كثيرا . واني اكبر منها ! »

وصمتت لحظة ، ثم اضافت : « اعطني ورقة وقلما » .

وسالها ابوها : « وماذا تريدين ان تفعلي ؟ »

فاجابته بجد : « اريد ان اكتب مثلك يا بابا ».

وضحكنا ، ولكن ضحكتنا ما لبثت ان انقلبت الى دهشة حين سمعناها تقول بعد ان اصبح القلم والورقة في يدها :

ـ نعم . اريد ان اؤلف .

ومضت لحظات صمت قبل ان يحملها سالم بين يديه ويرفعها عاليا ثم يقبلها بقوة وهو يغز على اسنانه ، ولم يقل شيئا ، ولكني كنت ادرك ما يجول في راسه . انما يسمعه من ابنته وهي لم تتجاوز من عمرها عامين ونصف ليس شيئا عاديا . اتراها ستكون نابغة ، اتراها ستشق لنفسها ولغيرها دروبا جديدة ؟ وهل سيتاح له ، هو ، ان يرافق هذا القبس في طريقه الصاعد خطوة خطوة ؟

لقد حدثني طويلا عما يعلق على اولادنا من امال . وكان يؤكد اننا نفتقد في جميع مدارسنا التربية الصحيحة وانه سيوجه الى اولادنا حين يرتادون المدارس عناية فائقة ويحاول ان يربيهم تربية قومية سليمة وان يغذي عندهم جميع الميول الادبية والفنية .

وانني اذ اذكر اقواله هذه لا استطيع الا ان ارتد الى احلامنا الاولى ، ايام الخطوبة تلك الاحلام التي تلاشت ازاءها جميع العقبات وانهارت كل المصاعب التي نهضت في وجه حياتنا المشتركة . كنا كثيرا ما نجلس صامتين حين تتراءى لنا اشباح الضيق ، فنظل دقائق والتمزق يعتمل في نفسينا ولا نستطيع ان نداريه بالصمت . وفجأة تشع عينا سالم ببريق غريب ثم تتحرك شفتاه وينطلق في حديث طويل ساحر عن بيتنا الصغير وعن طفلنا الاول وعن الفرحة التي سيطلقها في جميع ارجاء البيت وعن حركاته وسكناته وضحكه وبكائه . فاذا بنا قد نسينا كل المصاعب والعقبات واذا بنا من الغنى والبحبوحة والطمانينة بحيث نستطيع لو اردنا ان نقطف من السماء النجوم ونطلق في حناجر الطيور اروع الانغام .

وتنطوي سريعا صفحات من الماضي القريب تنتشر في ضميري صفحة عذاب شديد وسعادة غامرة في وقت واحد : ليلة ولدت طفلتنا وعانيت من الالم في وضعها بين يدي الحياة ما لا استطيع ذكره من غير ان تاخذ جسمي رعشة الاضطراب . ولكن حين استعدت حواسي وفتحت عيني على سالم وهو منحن فوق وجهي يقول لي : انها طفلة رائعة ، قرات في عينيه بهجة لم اعهدها لديه من قبل فامتلات نفسي رضى ونسيت اوجاعي . وكان حسبي ان ارى زوجي تغمره السعادة لتحقق اعذب امانيه : ان يكون له ولد . ان ذلك لم يكن يعني فقط انه اصبح ابا ، وانه بالتالي سيكسب الاستقرار العائلي الذي تفترضه الابوة ، بل ان يعني قبل كل شيء ان الفرصة ستتاح له الان لكي يتحمل مسؤولية تربية ابنته على النحو المثالي الرائع الذي كان يتخيله . وكم كنت سعيدة في ان اكون انا بنفسي في اتاحة هذه الفرصة له ، اني كنت ادرك انه من الرجال القلائل الذين يبذلون كل طاقة وجد في تحمل المسؤوليات التي تلقى على عاتقهم .. اليس ذلك هو مصدر اهتمامه الشديد بان يبحث طويلا عن اسم لولده قبل ان يولد . لقد كان عازما لو رزق ولدا ان يسميه « نضال » . وما كنت بحاجة الى ان اساله تفسيرا لهذه التسمية . فان كثيرا من مسلكه في الحياة يحمل طابع النضال ، من اجل ان يحقق ذاته وان يستدرك بشخصه الضعيف كل ما كان يفتقده في حياة قومه وامته من حاجة مستمرة الى الصراع المتصل .

غير اني لم ادرك بمثل ذلك الوضوح غايته من اختيار اسم طفلة ، اذا رزقنا طفلة . لقد سالني اذا كنت اوافق على تسميتها « رائدة » فاعجبني الاسم لاول وهلة ، لانه اسم جديد غير مالوف عندنا . ولكني حين ذكرت راية في الفتاة العربية . ماضيها وحاضرها ، وفي الصورة التي يتخيل بها فتاة المستقبل شعرت باهتزازة راعشة وانا افكر في معنى اسم ابنتنا لقد كانت رائدة قبل كل شيء بنت تفكيره وبنت احلامه ، كانت فتاة امنياته وطموحه قبل ان تكون ابنته من لحم ودم . انه يريدها ان تكون رمز ذلك الجيل الجديد من الفتيات الذي شيشق دربا جديدا في طريقنا الصاعد وكان يريد من ابنته ان تجسد حلمه في ان تسير فتاتنا جنبا مع فتانا ، لا تتخلف عنه خطوة ولا تشده الى الوراء ، بل يكون في نفسها من الجراة ، وفي زندها من القوة بحيث تدفعه اذا حاول ان يتقهقر او ان يبطىء او يقف .

وحين جاءوني بالطفلة ، بناء على طلبه اخذتها بين ذراعي ونظرت اليها ثم ادنيت جبينها من شفتي وتمتمت وانا اشعر بدمعة تترقرق في عيني « حبيبتي رائدة » . ثم التفت الى سالم وهززت براسي داعية اياه ان يدنو مني وقلت له وانا مغمضة الجفنين : « وانا ايضا ، ساحاول ان اعينك لتكون الرائدة التي تحلم بها ـ بابا ، الم نصل بعد ؟

وافقت على صوتها من احلام ذكرياتي ونظرت اليها جالسة بيني وبين ابيها على المقعد الامامي من السيارة . واجبتها : ـ سنصل بعد قليل .

وكان قد ابطأ في سيره لازدحام السيارات في ذلك الشارع الاهل .. وكان قد مضت دقائق طوية لم ينبس فيها حرفا . اتراه كان يتصور رائدة وهي تنمو رويدا وتصبح صبية صغيرة يضم شعرها كلها خصلة واحدة كذيل الحصان تحمل حقيبتها بيدها متاهبة للذهاب الى المدرسة ؟ انها ستاتي اليه اولا لتودعه ثم تنطلق كالسهم حتى تدرك سيارة المدرسة، وحين تعود في المساء ، وقد بدا عليها الاعياء وانفرطت خصلات من شعرها على جبينها وعلق غبار على وجهها ولطخات وحل في ثوبها يفتح لها ذراعيه لترتمي فيهما ؟ انه لم يكن يشك بانها شعلة من ذكاء وبانها ستتلقن دروسها بسرعة ... بل ما يدريني انه في هذه اللحظة لا يصورها وقد قفزت بها السنوات فاصبحت مراهقة حسناء تجلس بالقرب منه فيتحدثان كانهما صديقان لا كانهما اب وابنة ؟ اليس من المعقول ، حين تنهي رائدة دراستها الثانوية ان يكون قد نضج لديها ذوق ادبي يدفعها الى ان تقرا ما كان ابوها يكتبه ؟ او ليس معقولا ايضا بان تحل محلي في الاستماع اليه وهو يقرا لها اخر ما خطه قلمه . اليس ممكنا له ، الان وهو يقود السيارة ، ان ينسج من تصوراته قصة حب تكون رائدة بطلتها ؟

انني لا استطيع ان اتصور ان سالم لن يستلهم ابنتنا قصة او قصصا

عديدة ... واذن فستكون رائدة بطلة جديدة من بطلاته !

واحسست بضيق يفاجئني ، ولكنني سرعان ما ابتسمت : كيف اسمح لنفسي ان اشعر بالغيرة من طفلتي ؟ ثم جعلت ابرز هذا الشعور باني كنت طامعة بان اكون انا نفسي بطلة من بطلات قصصه . انني لم اساله في ذلك . ولكني كنت على يقين من ان حبنا لا بد ان يلهمه احدى روائع قصصه لانه شعور يعيشه وعاطفة يحياها .

وكنا قد توقفنا امام شرطي للمرور ننتظر منه ان يعطينا الاشارة . فاطلت رائدة من الشباك وسالت :

ـ بابا ، هل هو عسكري يهودي

فاجابها . لا يا بابا . هذا عسكري لبناني .

والتفت الى سالم وسالني باسما :

ـ اتذكرين هذه الصورة ؟

وتذكرت فورا صورة كنا ننظر اليها منذ ايام في احدى الصحف الفرنسية ،وهي تمثل فرقة من الجنود الاسرائيليين يتدربون مع بعض المجندات الاسرائيليات ولم ندر كيف قفزت رائدة بيننا وراحت تتطلع الى الصورة . ثم سالت : « من هم هؤلاء ؟ » فاجابها سالم : « انهم عساكر يهود يا بابا » . وقالت رائدة : « وماذا يفعلون ؟ » فتردد سالم لحظة كانه لم يجد الجواب الملائم ثم قال : « انهم يا بابا يقتلون . » فاتسعت عينا رائدة وداخلهما بريق من الخوف ثم سالته : « ومن يقتلون يا بابا » ؟ فصمت سالم وادركت ان الاجابة على هذا السؤال كانت اشق عليه من الاجابة السابقة . فقلت لرائدة « يقتلون الاولاد الصغار يا ماما . » ولم ادر ان كنت احسنت الجواب . ولكني سمعتها تتوجه الي متسائلة : « يعني يقتلون باسم وسامي ؟ » فقال سالم : « نعم يابا ، ويمكن ان يقتلوا اختك نانا » وفوجئنا بها تسارع فتتعلق بذراعي وهي تقول بصوت شبه باك : «لا يا ماما ، لا.. حرام اختي نانا». وارتاى سالم عند ذلك ان يبعد عنها هذه الفكرة فقص عليها قصة الثعلب والغراب وهو يمثل دور كل منهما فيمتلىء غبطة وهو يرى رائدة تنفجر ضاحكة وتصفق بيديها من فرط سرورها .

واعطى شرطي المرور الاشارة فانطلقت السيارة وضحكت رائدة وهي تقول :

ـ « يا عين على البرنيطه الحلوه على راسه . »

فخيل الي ان في لهجتها بعض السخرية وساءلتها :

ـ هل تريدين ان نشتري لك برنيطة مثلها ؟

فاشرق وجهها بالبهجة واجابت وهي تهز براسها بضع هزات . وكنا قد بلغنا مكانا استطاع سالم ان يركن فيه السيارة .

ثم ترجل الى الطريق . ولكنه ما كاد يخطو خطوتين حتى صاحت به رائدة : « بابا بابا ، برنيطه .. وباروده كمان . » ورايته يضحك من بعيد وهو يهز له بسبابته كانما يقول : « يا عفريتة » وركضت الطفلة تلصق وجهها بزجاج الباب فبدا انفها افطس. ولكن عينيها كانتا تلمعان بحيوية غريبة . وظلت تتابعه بنظراتها وهو يلتفت اليها بين فترة واخرى حتى كاد يصطدم ذات لحظة باحد المارة . وحين اختفى نظرت الي واحاطتني بذراعيها واخذت تقبلني . كان هذا شانها كلما كانت فرحة او كانت تنتظر شيئا يفرحها . وسالتها في تلك اللحظة سؤالي المعهود :

ـ من تحبين اكثر . بابا ام ماما .

وكان من عادتها ان تجيبني حين لا يكون ابوها موجودا ماما . وكثيرا ما سمعتها تقول لسالم حين يطرح عليها مثل هذا السؤال واكون انا في غرفة مجاورة « بابا » .

اما هذه المرة فقد اجابت بلهجة مطمئنة :

« بابا وماما » .

انها لم تكن تنسى ذلك الذي سيجلب لها بعد قليل فرحة غامرة .

وانقضت دقائق اخرى قبل ان يلوح من البعيد .. وكان مسرعا في سيره وبيده علبة طويلة . واخرى مربعة . واخذت رائدة تقفز على المقعد وهي تقول : « يا عيني يا عيني يا بابا . جاب البرنيطه والباروده ».

اقترب من الزجاج والصق انفه عليه فبدا افطس وهو يفتر عن اسنانه . وحين فتح الباب خطفت منه العلبة الطويلة وبدات تعالج فتحها واعطاني العلبة الاخرى وهو يقول لي :

ـ « البسيها اياها لنرى كيف تكون » .

وهدات لحظة وانا اضع القبعة ، على راسها ، وما كدت افعل حتى صاح سالم :

ـ « رائعة »

ولا اذكر انا ايضا اني رايتها من قبل اجمل مما كانت في تلك اللحظة.

وكانت قد فتحت العلبة الطويلة واخرجت الباروده وجعلت تتطلع اليها بدهشة واعجاب ثم قالت :

ـ « انها احلى من باروده باسم » .

فضحكت واجلستها الى جانبي . وكان سالم قد ادار المحرك فانطلقت السيارة ، وسمعناها بعد قليل تسال :

ـ « بابا هل اقدر ان اقتل بها اليهود ؟ »

ورايت سالم يميل فجاة بالسيارة الى اليمين ثم يوقفها ، ويلتفت الى رائدة فيضمها اليه ويقول :

ـ نعم يا بابا . تقدرين .

وساد بيننا صمت احسست في اثنائه برعشة تسري في كياني . وقبل ان تنطلق السيارة من جديد ، سمعت صوته يقول من غير ان يلتفت الي:

ـ « ستكون بطلة جديدة » ...

ولست ادري ان كان يقصد انها ستكون بطلة جديدة من ابطال قصصه ام انها ستكون بطلة جديدة من ابطال تاريخنا .

وكانت رائدة قد انطوت على نفسها ، محتضنة الباروده الى صدرها ولاحظنا ان النعاس قد بدا يهوم على عينيها اللتين كان بريق الانتصار والطمانينة يشع منهما قبل لحظات .

عائدة مطرجي ادريس

كتابان خطيران

عارنا في الجزئر : لجان بول سارتر

الجلادون لهنري اليغ

ترجمة عايدة وسهيل ادريس

دار الاداب